



ستة أشياء تُغلق باب التوفيق

(012) سورة يوسف

2021-01-28

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَبَارِكْ لَنَا بِشَيْخَانَا وَبِحَيَاتِهِ وَبِعَمْرِهِ.

أحبابنا الكرام: ذكر ابن القيم الجوزية رحمه الله في كتابه الفوائد عن شقيق البلخي أنه قال: أُغْلِقَ بَابُ التَّوْفِيقِ عَنِ الْخَلْقِ مِنْ سِتَّةِ أَشْيَاءَ، أَي بِسَبَبِ أَشْيَاءَ سِتَّةَ، مَا هَذِهِ السِتَّةُ الَّتِي تُغْلِقُ بَابَ التَّوْفِيقِ؟

1- اسْتَغَالَهُمُ بِالنِّعْمَةِ عَنْ شُكْرِهَا

إخواننا الأحياء: اليوم كثراً في ضيافة أخينا، وقَدَّمْ لَنَا مَا قَدَّمَ جِزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا، فَالآن لَوْ افْتَرَضْنَا أَنَا وَصُورَتُنَا مَصُورَةً- كَامِيرَا- وَصُورَتُنَا وَقَدْ أَكَلْنَا الطَّعَامَ الطَّيِّبَ الَّذِي طَبَّبْتَهُ الْعَاقِبَةُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، ثُمَّ خَرَجْنَا وَنَسِينَا أَنْ نَقُولَ لِصَاحِبِ الدَّارِ: جِزَاكَ اللَّهُ عَنَّا خَيْرًا، فَمَا يَكُونُ حَالُنَا إِذَا نَظَرْنَا بِمَا صَوَّرْتَهُ الْمَصُورَةُ؟! لَقَدْ نَسِينَا أَنْ نَشْكُرَ صَاحِبَ الطَّعَامِ، اسْتَغْلَيْنَا بِالطَّعَامِ عَنْ صَاحِبِ الطَّعَامِ.



انتقل من النعمة إلى المنعم

حَالُنَا فِي الدُّنْيَا أَنَا عَلَى مَائِدَةِ اللَّهِ، وَهَذِهِ الْمَائِدَةُ الْيَوْمَ كَانَتْ مَائِدَةُ اللَّهِ، وَكُلُّ الْمَوَائِدِ مَوَائِدُ اللَّهِ، فَكَيْفَ نَتَشَغَلُ بِالنِّعْمَةِ عَنِ الْمُنْعِمِ فَلَا نَشْكُرُهُ وَنَقُولُ يَا رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ! نِعْمَةُ الْمَاءِ، نِعْمَةُ الطَّعَامِ، نِعْمَةُ الزَّوْجَةِ، نِعْمَةُ الْوَلَدِ، فَلَمَّا يَشْتَغِلِ الْإِنْسَانُ بِالنِّعْمَةِ وَيَنْسَى الْمُنْعِمَ جَلَّ جَلَالُهُ فَإِنَّهُ يُغْلِقُ بَابَ التَّوْفِيقِ عَنْهُ، وَشَيْخُنَا دَائِمًا يَقُولُ: لَا تَبْقَ مَعَ النِّعْمَةِ، انْتَقِلْ مِنَ النِّعْمَةِ إِلَى الْمُنْعِمِ، لِأَنَّ الْمُنْعِمَ جَلَّ جَلَالُهُ عِنْدَهُ الْجَمَالُ، وَعِنْدَهُ الْكَمَالُ، وَعِنْدَهُ الْعَطَاءُ وَالنِّوَالُ، أَمَّا هَذِهِ الْأَشْيَاءُ فَزَائِلَةٌ، لَكِنْ مَا الَّذِي يَبْقَى؟ يَبْقَى الْمُنْعِمُ جَلَّ جَلَالُهُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27)

(سورة الرحمن)

فابق مع الله جلّ جلاله، ولا تبق مع النعمة الزائلة، تستمتع بالنعمة دون أن تنسى المنعم.
أُغْلِقْ بَابَ التَّوْفِيقِ عَنِ الْخَلْقِ مِنْ بَيْتَةِ أَشْيَاءٍ: اسْتَغَالَهُمْ بِالنِّعْمَةِ عَنْ شُكْرِهَا.

2- رَغْبُهُمْ فِي الْعِلْمِ وَتَرْكُهُمُ الْعَمَلَ.



العلم ما عَمِلَ بِهِ

فالعلم ما عَمِلَ بِهِ فَإِنْ لَمْ يُعْمَلْ بِهِ كَانَ الْجَهْلُ أَوَّلَى، لَأَنَّ الْجَاهِلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَبَّمَا يَقُولُ: يَا رَبِّ كُنْتُ جَاهِلًا، وَلَا يُعَذِّرُ الْإِنْسَانُ بِجَهْلِهِ مَا دَامَ فِي دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ، لَكِنْ تَبْقَى جَرِمَتُهُ أَقْلًا
مَنْ تَعَلَّمَ ثُمَّ لَمْ يَعْمَلْ بِمَا عِلَّمَ، لِذَلِكَ أَيُّهَا الْأَحِبَّاءُ: لَا يَنْبَغِي أَنْ نَشْغَلَ بِالْعِلْمِ عَنِ الْعَمَلِ، قَالَ تَعَالَى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11)

(سورة المجادلة)

في آية ثانية:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ (10)

(سورة فاطر)

فالعلم والعمل قيمتان اعتمدتهما القرآن الكريم للتريج بين الخلق، لكنَّه الْعِلْمُ الَّذِي يُوْدِي إِلَى الْعَمَلِ، أَمَا الْعِلْمُ الَّذِي لَا يُوْدِي إِلَى عَمَلٍ فَلَا قِيَمَةَ لَهُ.
أَيُّهَا الْكَرَامُ؛ أُغْلِقْ بَابَ التَّوْفِيقِ عَنِ الْخَلْقِ مِنْ بَيْتَةِ أَشْيَاءٍ: اسْتَغَالَهُمْ بِالنِّعْمَةِ عَنْ شُكْرِهَا، وَرَغْبُهُمْ فِي الْعِلْمِ وَتَرْكُهُمُ الْعَمَلَ.

3- الْمُسْتَارَعَةُ إِلَى الذَّنْبِ وَتَأْخِيرُ التَّوْبَةِ

نحن أُمِرْنَا أَنْ نُسَارِعَ إِلَى التَّوْبَةِ وَأَنْ نُؤَخِّرَ الذَّنْبَ، فَإِذَا بِالْبَعْضِ يُسَارِعُ إِلَى الذَّنْبِ وَتُؤَخِّرُ التَّوْبَةَ، يَقُولُ: سَوْفَ أَتُوبُ، وَ(سَوْفَ) جَنْدِيٌّ مِنْ جُنُودِ إِبْلِيسَ، وَقَدْ قَالُوا:
لَا تَقُلْ: حَتَّى أَنْهِيَ الدِّرَاسَةَ أَوْ أَسْتَقِمْ الْآنَ، لَا تَقُلْ: يَنْتَهِي هَذَا الْمَشْرُوعُ وَإِنْ شَاءَ اللَّهُ لَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَشْرُوعَاتٌ قَادِمَةٌ بِالرَّبِّ، بَلْ بَدَأْ بِهَذَا الْمَشْرُوعِ أَوْفَقُ الرِّبَا، فَمَا أَدْرَاكَ أَنَّكَ تَعِيشُ إِلَى الْمَشْرُوعِ
الَّذِي يَلِيهِ! نَمْ قَدْ تَقُولُ: أَنْتَرُجُ نَمْ أَسْتَقِمْ، وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّكَ سَتَنْتَرُجُ يَا أَخِي! وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّكَ تَمُوتُ قَبْلَ أَنْ تَنْتَرُجَ، فَلَا تَقُلْ: سَوْفَ وَحَتَّى، وَقَدْ قِيلَ: هَلْكَ الْمُسَوِّفُونَ.

فالإِنسان لا ينبغي أن يقول: سَوْفَ، وإنما يُبادر الآن إلى التوبة ويُؤخِّر الذنب، يترك الذنب، كلنا ذو خطيئة لكن الإنسان ينبغي أن يبادر إلى باب الله. أُعْلِقَ تَابُ التوفيقِ عَنِ الخَلْقِ مِنْ سِتَّةِ أَشْيَاءَ: اسْتَعَالَهُمْ بِالنِّعْمَةِ عَنْ شُكْرِهَا، وَرَغِبَهُمْ فِي العِلْمِ وَتَرْكُهُمُ العَمَلَ، وَالمُسْتَارَعَةُ إِلَى الذَّنْبِ مع تأخير التوبة.

4- الاغترارُ بِصُحْبَةِ الصَّالِحِينَ وتركُ الاقتداءِ بِفعالِهِمْ

قالوا: المَخْرُومُ مَنْ حُرِمَ مَنْ يَرْكَبُهُ أَهْلِي رَمَايِهِ.



أهمية الاقتداء بأفعال الصالحين

والله أيها الكرام: شيخنا الدكتور محمد راتب النابلسي جزاه الله عنا كل خير، ومن بركة الزمان، وجلوسنا اليوم في مجلسه فضلٌ من الله، لأن آخرين يجلسون والعباد بالله في مجالس الله، ويقول لك: التقطتُ صورةً مع الفنان الفلاني ممَّن ساءت سيرته نسال الله العافية، لكن نحن أكرمنا الله عزَّ وجلَّ بأن تجلس مع الصالحين لكن لا ينبغي أن نغترَّ بهذا الجلوس دون أن نقتدي بِفعالِهِمْ، كان لشبخنا مثلٌ جميلٌ جداً يقول: إن مستخدماً -والمستخدم على العين والرأس- قد يكون خيراً من مدير الشركة، لكن استغلَّ غياب المدير العام عن الشركة ودخل وجلس خلف المكتب، هل أصبح مديراً للشركة؟ لا، لأنه يحتاج إلى ابتدائية وإعدادية وثانوية، ومدير الشركة دكتور، إن لم يبدأ بتحصيل العلم لن يستفيد، فلا ينبغي أن نغترَّ بِصُحْبَةِ الصَّالِحِينَ، نعم نُصَاحِبُهُمْ وهم يركبنا ونسال الله أن يرحمنا ببركتهم هذا مطلوبٌ وليس فيه أي إشكال:

{ رَبِّ فِيهِمْ قُلَانٌ عَبْدٌ خَطَاءٌ إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ، فَيَقُولُ: وَلَهُ عَقْرُثٌ، هُمُ الْقَوْمُ لَا يَسْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ }

(رواه مسلم)

(هُمُ الْقَوْمُ لَا يَسْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ) كما صحَّ في الحديث، بعضنا يأخذ بيد بعض إن شاء الله، وضحيتنا للصالحين فيها خير، لكن لا نغترَّ بها، جلسنا مع الشيخ، أخذنا صورةً تذكاريةً ورجعنا إلى أعمالنا المخالفة للشرعية، والله ما فعلنا شيئاً، لكن ينبغي أن نبداً نصح لنا الشيخ، نقتدي بما قاله شيخنا، نقتدي بِفَعَالِيهِ وَأَخْلَاقِهِ وَعِلْمِهِ، وبكل الصالحين. أُعْلِقَ تَابُ التوفيقِ عَنِ الخَلْقِ مِنْ سِتَّةِ أَشْيَاءَ: اسْتَعَالَهُمْ بِالنِّعْمَةِ عَنْ شُكْرِهَا، وَرَغِبَهُمْ فِي العِلْمِ وَتَرْكُهُمُ العَمَلَ، وَالمُسْتَارَعَةُ إِلَى الذَّنْبِ وتأخيرُ التوبة، والاعترارُ بِصُحْبَةِ الصَّالِحِينَ وتركُ الاقتداءِ بِفعالِهِمْ.

5- إِذْبَارُ الدُّنْيَا عَنْهُمْ وَهُمْ يَتَّبِعُونَهَا وَإِقْبَالُ الآخِرَةِ عَلَيْهِمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ عَنْهَا

نحن منذ خُلِقْنَا استدبرنا الدنيا واستقبلنا الآخرة، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30)

(سورة الزمر)



نحن في الدنيا ضيوف

نحن محكومون بالموت مع وقف التنفيذ، متى يأتي التنفيذ؟ الله أعلم! لكن حُكِّمنا بالموت منذ خُلِقنا، وجئنا للدنيا على هذا الشرط أننا سنموت، فاستدبرنا الدنيا، أصبحت الدنيا وراءنا فالإنسان ينظر إلى ورائه أم ينظر إلى ما سيأتي؟ قال: إِدْبَارُ الدُّنْيَا عَنْهُمْ وَهُمْ يَتَّبِعُونَهَا وَإِقْبَالُ الآخِرَةِ عَلَيْهِمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ عَنْهَا، شيءٌ غريب، أنت الآن ذاهبٌ إلى هناك انظر ماذا ستفعل هناك، أما بيتك فقد تركته، انتهى، استقيل ما سيأتي واستدبر ما مضى فالدنيا مضت، انتهت، كلنا انتهت دنيانا، الآن في هذه اللحظة والله الدنيا انتهت، كم بقي لكل واحدٍ مئةً عشرةً أو عشرون أو ثلاثون أو أربعون سنة؟ انتهت، الدنيا انتهت، نحن مُقبلون على الآخرة، نحن أبناء الآخرة، نحن في الدنيا ضيوفٌ هذه ليست دار مقامٍ لنا جئنا إليها ضيوفًا وسنغادر، المقام في الآخرة، فينبغي أن نعمل لما نستقبله لا لما نستدبره، وهذا لا يعني ترك العمل في الدنيا، لا، أبدًا، ولكن يعني ترك العمل للدنيا، فنحن لا نعمل لدنيانا، لكن نعمل فيها، نبني فيها بيتًا ونترجّح ونُجنب ونأكل ونشرب لكن ههنا الآخرة، لذلك في الحديث:

{ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُو يَهْؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ لِأَصْحَائِهِ: (اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ حَسَنَاتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّاتِكَ، وَمِنْ الْيَقِينِ مَا نُهَوِّجُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتَّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوتِنَا مَا أَحْيَيْنَا، وَاجْعَلْ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَرَاتَنَا عَلَى مَنْ تَلَمَّعْنَا، وَأَنْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْثَرَ هَمًّا لَنَا، وَلَا تَبْلَغْ عَلِمَتْنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا }
(رواه الترمذي)

(اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْثَرَ هَمًّا لَنَا) لم يقل: لا تجعل الدنيا هَمًّا، من ذا الذي لا تكون الدنيا همًّا من همومه! يريد أن يزوّج أولاده وبناته، ويريد أن يشتري بيتًا، وأن يؤسس عملاً، كلنا الدنيا همٌّ من همومنا، لكنها ليست أكبر همٍّ المؤمن، أكبر همٍّ هو الآخرة والدنيا يأخذ منها بما يوصله إلى الهدف وبما يُعينه على الهدف، فإن كان المال يُعينه على طاعة الله فبها حبًّا للمال، وإن وجد أنه يصرفه عن طاعة الله فالحمد لله أن صرّف عني المال، وهكذا.
أُعْلِقُ بَابَ التَّوْفِيقِ عَنِ الْخَلْقِ مِنْ بَيْتِهِ أَشْيَاءُ: اسْتَغَالَهُمْ بِالنِّعْمَةِ عَنْ شُكْرِهَا، وَرَغِبَهُمْ فِي الْعِلْمِ وَتَرْكُهُمُ الْعَمَلَ، وَالْمُسَارَعَةَ إِلَى الذَّنْبِ وتأخيرُ التَّوْبَةِ، وَالْإِغْتِرَافُ بِصُحْبَةِ الصَّالِحِينَ وَتَرْكُ الْإِقْتِدَاءِ بِفَعَالِهِمْ، وَإِدْبَارُ الدُّنْيَا عَنْهُمْ وَهُمْ يَتَّبِعُونَهَا، وَإِقْبَالُ الآخِرَةِ عَلَيْهِمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ عَنْهَا.
بارك الله بشيخنا ونفعنا بعلمه.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ